مقدمة

موضوع هذه الدراسة هو الأسس المنهجية للنحو العربى، والمقصود بالأسس المنهجية منظومة المبادئ والمفاهيم النظرية التى قام عليها النحو العربى، وكذلك الإجراءات المنهجية التى استخدمها النحاة فى دراستهم لمادتهم بهدف الوصول إلى القواعد النحوية ثم بهدف دراسة هذه القواعد، ذلك أن عمل النحاة لم يتوقف عند الوصول إلى القاعدة، وإنما تعدى ذلك إلى دراستها وتفسيرها .

وقد تناولت أكثر الدراسات السابقة القضايا المنهجية للنحو العربى تحت عنوان أصول النحو، وهو كذلك العنوان التراثى الذى استخدمه منظرو النحاة . وقد استخدم النحاة مصطلح الأصول بمعنيين: الأول هو القواعد الأساسية فى مقابل القواعد الفرعية، وهذا هو المعنى الذى عناه ابن السراج فى كتابه «الأصول»، وهو معنى المصطلح أيضا فى حد الفاكهى للنحو بأنه: «علم بأصول يعرف بها أحوال الكلم إعرابًا وبناءً »[1]؛ إذ الأصول عنده «قواعد كلية منطبقة على جزئياتها، منها: كل ما اشتمل على علم الفاعلية فهو مرفوع، وكل ما اشتمل على علم المفعولية فهو منصوب، وكل ما اشتمل على علم المضاف إليه فهو مجرور» [2]

أما المعنى الثانى فهو طرق الاستدلال على صحة القواعد النحوية، فأصول النحو هى - كما يقول الأنبارى -: «أدلة النحو التى تفرعت منها فروعه وفصوله، كما أن أصول الفقه هى أدلة الفقه التى تفرعت منها جملة تفاصيله »[3] وهذه الأصول، أو وهذه الأدلة هى عند ابن جنى الإجماع والقياس والسماع . وهى عند الأنبارى السماع والاستصحاب والقياس، وعند السيوطى: السماع والإجماع والاستصحاب والقياس .

ويمكن كذلك أن نميز فى الاستخدام المعاصر لمصطلح الأصول بين دلالتين، ظلت الأولى تحافظ على دلالته السابقة على طرق الاستدلال[٤]، بينما وسعت الثانية هذه الدلالة لتشمل المفاهيم المنهجية الأساسية للنحو العربى، كالعامل والتعليل والتأويل[٥].

وفى محاولة لتحقيق الشروط الأكاديمية للبحث عن طريق اختيار عينة ممثلة يمكن أن تدرس بدقة وعمق، وتكون فى الوقت نفسه ممثلة للمشهد النحوى بمختلف عصوره واتجاهاته، اتخذت هذه الدراسة من كتب إعراب القرآن الكريم حتى القرن السادس الهجرى مادة لها . والمقصود بكتب إعراب القرآن الكريم مجموعة الكتب التى غلب الإعراب على مادتها؛ ومن ثم تخرج كتب التفسير التى استعانت بالإعراب بوصفه وسيلة من الوسائل التى يستعين بها المفسر فى شرح المعنى حينما يحتاج إليها، بينما تدخل كتب مثل معانى القرآن للأخفش، ومعانى القرآن للفراء، وإن لم ينص فى عناوينها على كلمة الإعراب . ويدخل فى الفترة الزمنية المحددة من كتب إعراب القرآن ما يلى:

- مجاز القرآن لأبى عبيدة: معمر بن المثنى (ت: ٢١٠ هـ) .
- معانى القرآن للأخفش: أبى الحسن سعيد بن مسعدة (ت: ٢١٥ هـ) .
- معانى القرآن للفراء: أبى زكريا يحيى بن زياد (ت: ٢٠٧ هـ) .
- معانى القرآن وإعرابه للزجاج:أبى إسحق إبراهيم بن السرى(ت:٣١١هـ)
- إعراب القرآن المنسوب للزجاج .
- إعراب ثلاثين سورة من القرآن لابن خالويه: أبى عبد الله الحسين بن أحمد (ت: ٣٧٠ هـ) .
- مشكل إعراب القرآن للقيسى: مكى بن أبى طالب (ت: ٤٣٧ هـ) .
- البيان فى غريب إعراب القرآن للأنبارى: أبى البركات عبد الرحمن بن محمد (ت: ٥٧٧ هـ) .
- التبيان فى إعراب القرآن للعكبرى: أبى البقاء عبد الله بن الحسين(ت: ٦١٦هـ) .

وقد يكون غريبا أن تتخذ الدراسة من مجموعة من الكتب التطبيقية مادة لها، رغم أنها دراسة تنظيرية تعنى بشكل أساسى بالمبادئ والمفاهيم المنهجية، بيد أن هذه الغرابة سرعان ما تتلاشى حين نعلم أن هذه الكتب توصف بأنها كتب تطبيقية بالمعنى الذى يميزها عن غيرها، لا بالمعنى الذى يحدد حقيقتها وماهيتها، فهى أيضا كتب فى النحو، نجد بها كل مسائله وأبوابه، بل إن بعضها يعد الممثل الأهم لفكر صاحبه - كما فى حالة معانى القرآن للأخفش الذى لم يصل إلينا من كتبه النحوية سواه - أو لفكر المدرسة النحوية التى ينتمى إليها صاحبه، كما فى حالة معانى القرآن للفراء الذى حفظ لنا أيضا آراء شيخه الكسائى الذى ضاع كتابه: «معانى القرآن»، كما حفظ سيبويه آراء الخليل فى الكتاب .

وتتميز هذه المجموعة من الكتب بامتدادها الزمانى والمكانى، بحيث يمكن أن نعدها من أصدق مجموعات الكتب النحوية التى تدور حول موضوع واحد تمثيلا للمشهد النحوى بتنوعاته المختلفة - إن وجدت مثل هذه التنوعات- حيث تمتد زمانيا من القرن الثانى إلى القرن السادس، وتمتد مكانيا لتشمل البصرة والكوفة وبغداد ومصر والأندلس . وكلها بيئات نسبت إليها اتجاهات نحوية مستقلة . وقد حُقِّقَ أكثر هذه الكتب فى فترة متأخرة، ومن ثم لم يتح للعديد من الدراسات السابقة الاطلاع على هذه المجموعة من الكتب والإفادة من مادتها .

وقد مَثَّلَتْ هذه الكتب أهم الأعمال التطبيقية فى النحو العربى، وتَعَرَّضَ النحو فيها لأوسع اختبار له، وذلك بعرضه على القرآن الكريم، هذا بالإضافة إلى أن دوران هذه المجموعة من الكتب النحوية حول القرآن الكريم، وشدة اتصالها بقراءاته، مع ما للقرآن الكريم من خصوصية فى الدرس اللغوى عند العرب - أتاح للبحث مادة تفسيرية مهمة ساعدت على فهم الكثير من المواقف والآراء النحوية ؛ حيث كان الحضور الدائم للنص القرآني- وإن بدا حضورًا ضمنيًّا - وراء العديد من مفاهيم النحو العربى الذى نشأ فى بيئة قرآنية مستهدفًا فهم القرآن، والحفاظ على اللغة التى نزل بها .

ويستهدف هذا البحث الكشف عن المنهج الذى اتبعه النحاة فى تعاملهم مع المادة اللغوية من أجل الوصول إلى القواعد النحوية، ثم تحديد أهم الأسس والمفاهيم التى دُرِسَتْ هذه القواعد على أساسها ؛ حيث لم يكتف النحاة ـ كما سبق ـ بالتوصل إلى القوانين التى تفسر الظواهر اللغوية، وإنما تعدوا ذلك إلى تقديم مجموعة من التحليلات والتفسيرات التى تشرح هذه القوانين وتدافع عنها . كما يستهدف البحث تقديم تحديد دقيق للدور الذى لعبه كل مفهوم من هذه المفاهيم فى التراث النحوى .

وقد انطلقت الدراسة من ملاحظة الفارق الكبير بين ما قدمه أصحاب كتب أصول النحو من شرح منهجى لعمل النحاة، وما جاء فى كتب العلم الأساسية المبكرة . ويعود هذا الفارق إلى الخطأ فى فهم دلالة عدد من المصطلحات الأساسية التى استخدمها النحاة، وهو خطأٌ يعود بدوره إلى ما صرحوا به من رغبتهم فى إقامة علم لأصول النحو على غرار علم أصول الفقه، رغم ما بين العلمين من خلاف فى الطبيعة والهدف . غير أن اشتراك العلمين فى استخدام عدد من المصطلحات جعل بعض المتأخرين ينقل مدلولات هذه المصطلحات عند الأصوليين ليعرف بها مصطلحات النحاة . بالإضافة إلى نقله أكثر مباحث الأصوليين، وتقديم المادة المنهجية عند النحاة من خلالها، فحصر من قام بذلك مفهوم أصول النحو فى طرق الاستدلال، ولم يتمكن من تقديم وصف دقيق للمنهج النحوى، وجانبه الصواب كثيرا فى تحديد الدور الذى أدته العناصر المنهجية التى تعرض لها .

وفى العصر الحديث بدأت الدراسات النظرية حول التراث النحوى فى الوسط الأكاديمى، ولم يكن أوائل المشتغلين بالتدريس فى الجامعة من العرب، بل كانوا أساتذة ينتمون إلى ثقافات أخرى، وقد نظروا إلى التراث النحوى وفهموه من خلال هذه الثقافات ؛ ومن هنا اتخذت مصطلحات مثل القياس والعلة.... نفس دلالاتها فى التراث الثقافى لهؤلاء الأساتذة . ولم يتجاوز الجيل التالى من رواد ما يُسَمَّى بحركة التنوير هذا الوضع ؛ إذ مَثَّل هذا الفهم بالنسبة لهم أداة تؤصل

لمشروعهم الحضاري؛ حيث مكنهم من الربط بين التراثين العربى واليونانى، ومن تحديد العلاقة بينهما فى نطاق الاستلهام والتمثل، وهو النموذج الذى كانوا يطرحونه للعلاقة بين العالمين العربى والغربى فى العصر الحديث .

ولا يقلل هذا من شأن الأعمال التى قُدِّمَتْ فى أصول النحو وفى منهج النحاة فى العصر الحديث، بقدر ما يؤكد كثافة السحب التى كان على هذه الأعمال أن تخترقها، مما يفسر جزئية النجاح الذى حققته فى غالب الأحيان، كما يؤكد استمرارية الحاجة إلى أبحاث تحاول الكشف عن الأسس المنهجية للنحو العربى، متجاوزة أعمال المنظرين: القدماء والمحدثين على السواء .

وبطبيعة الحال تفيد هذه الدراسة من كل الدراسات السابقة فى هذا الميدان، سواء التى خصصت لدراسة أُصول النحو بشكل عام، أو التى اقتصرت على دراسة بعض المفاهيم النحوية كالقياس والتعليل والاستشهاد . غير أن هذا البحث يختلف عن الأبحاث السابقة فى أصول النحو من عدة جوانب، إضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه من توسيع دلالة المصطلح .

يتصل أول هذه الجوانب بمادة الدراسة ؛ حيث يتوفر البحث على دراسة مجموعة من الكتب المختارة التى لم تسبق دراستها من هذا الجانب، مع ما لها من خصوصية وأهمية سبقت الإشارة إليها . بينما عمدت الدراسات السابقة إلى الدراسة العامة التى لم تمكنها من التركيز والتعمق، أو إلى الاقتصار على كتاب بعينه لم يُتِحْ لها الإحاطة بالجوانب المختلفة لموضوع الدراسة .

والجانب الثانى أن هذه الدراسة لا تنطلق من الوصف، الذى قدمه بعض النحاة المتأخرين فى كتب أصول النحو لمنهج النحاة، وإنما تعمد إلى استنباط الأسس المنهجية للنحو العربى من خلال المؤلفات النحوية نفسها ؛ ومن ثم فهى تعيد طرح التساؤلات المنهجية على مادة الدراسة، وتحاول أن تقدم إجاباتها من خلال قيامها بتحليل دقيق لهذه المادة، فى ضوء المعرفة بالإنجازات الحديثة فى ميادين المنطق

وفلسفة العلم وتاريخه ؛ ومن هنا عرضت الدراسة لجوانب لم تسبق معالجتها، وقدمت إجابات جديدة للعديد من التساؤلات المطروحة من قبل، كما أعادت ترتيب العناصر المنهجية التى تعرضت لها كتب أصول النحو والدراسات الحديثة التى دارت حول هذه الكتب .

ويتصل ثالث هذه الجوانب بمنهج الدراسة، حيث تنطلق من مجموعة من المفاهيم التى تحتاج إلى التأكيد عليها والصدور عنها فى مثل هذا الضرب من الدراسات النحوية .

من هذه المفاهيم أنه لا ينبغى أن نتعامل مع كتب التراث بوصفها مراجع نعود إلى ما نحتاج من فصولها وربما صفحاتها، وإنما ينبغى أن تُفْهَمَ المواد التى نتعرض لها فى هذه الكتب فى ضوء مواد الكتاب الذى وردت فيه من ناحية، وبقية مؤلفات الكاتب وإسهام عصره من ناحية ثانية . ومن هنا ضُمَّت إلى مجموعة الكتب موضوع الدراسة مادة ثانوية تشمل الكتب الأخرى لمؤلفى كتب إعراب القرآن، وبعض كتب الاحتجاج للقراءات كالمحتسب، وبعض كتب التفسير الأكثر اهتمامًا بالجانب اللغوى كالكشاف، وبعض الكتب ذات الأهمية التاريخية نحو كتاب سيبويه، وبعض الكتب الموسوعية التى تقدم صورة شاملة للنحو العربى نحو كتاب همع الهوامع للسيوطى. ويتيح هذا المسلك التركيز على مادة بعينها يتم فحصها بدقة شديدة فى ضوء رؤية أشمل تُجَنِّب الدراسة الكثير من مشاكل سوء الفهم . وبهذه الطريقة نستطيع أن نقوم بحركة تراوحية تبدأ من النصوص المختارة، ثم تنطلق إلى مادة ضابطة، ثم تعود إلى المادة الأولى للمراجعة والتصحيح .

ومن هذه المفاهيم أيضًا-أن الإيمان العميق باتصال علوم التراث يجعل من الصعب أن يُدرس أى من جوانبه بمعزل عن غيره من العلوم . وفى هذا الصدد يجب أن أشير إلى أنَّ الاشتراك بين العروضيين والنحاة فى التعليل بالتخفيف، والثقل، وكثرة الاستعمال، وتوالى الحركات، وفى الحديث عن الأصل والفرع، وعد كل خروج عن الأصل علة وزحافًا فى العروض، وضرورة ومجازًا فى النحو،

وكذلك الاشتراك بين النحاة والمتكلمين فى مفهوم العلة والتعريف، والاشتراك بين النحو والبلاغة فى الكثير من محاور التصنيف، وفى مركزية فكرتى النقل والنظم «التعلق»، بالإضافة إلى ما أشار إليه غير واحد من الباحثين من العلاقة بين علم أصول النحو وعلمى الحديث وأصول الفقه - كل ذلك ليس مجرد تشابه ناتج عن التأثير والتأثر، بقدر ما هو صدور عن سياق علمى واحد ينتظم العلوم التى نشأت فى ظل الحضارة العربية الإسلامية ؛ ومن ثم تبدو حتمية التعرف على هذا السياق العلمى، لا لفهم النحو العربى فحسب، بل لفهم ذواتنا التى يشكل هذا التراث جانبا منها، وهو فهم نفقد بدونه القدرة على الخلق والإبداع . ولا أزعم أننى أستهدف - الآن على الأقل - القيام بمثل هذا العمل العظيم، وإنما أؤكد على ضرورة فهم النحو العربى بوصفه واحدا من علوم هذه الحضارة العربية الإسلامية، وهو ما كانت الدراسة على ذكر منه دائمًا .

كذلك يؤكد البحث على أن الفهم الكامل لأى إنجاز علمى، أو على الأقل الفهم الذى يمكن الاطمئنان إليه، لا يتأتى دون تفسير هذا الإنجاز، ومعرفة أهدافه وبواعثه ؛ ومن ثم فإن الدراسة لا تتوقف عند الرصد والوصف بل تتجاوزهما إلى محاولة تقديم تفسيرات تربط النحو بظروف نشأته، وبالعقلية التى أنتجته، وبالأفكار التى نشأ فى ظلالها . ومن هنا يبدأ الفصلان الثالث والرابع ببحث العوامل التى أدت إلى نشأة فكرتى التحويل والتعليل اللتين خُصِّص الفصلان لدراستهما، كما يقدم الفصل الثانى تفسيرات لموقف النحاة من عناصر المادة اللغوية، وتتخلل الفصل الأول تفسيرات للعديد من الأفكار التى يعرض لها .

وقد بدا واضحا أثناء الدراسة أن هذا النهج لا يفيد فحسب فى فهم النحو العربى، وإنما يفيد كذلك فى التحقق من صحة هذا الفهم، كما يفيد فى تحديد ما هو أصيل فى الفكر اللغوى عند العرب، وما يرتد إلى ظروف نشأته.

وأخيرا يؤكد البحث على ضرورة الحفاظ على استقلالية المادة موضوع الدراسة،

والابتعاد عن إسقاط المفاهيم المعاصرة على المادة النحوية القديمة . وهذا ما وقعت فيه دراسات كثيرة لم تضع فى اعتبارها أن اختلاف السياق الثقافى يُنْتِجُ بالضرورة اختلافا فى المفاهيم والمصطلحات، ولذلك نجد هذه الدراسات تسعى دائما إلى البحث عن أوجه الشبه بين الاتجاهات اللغوية المعاصرة والنحو العربى، وهو سعى يسحب القيمة عن التراث النحوى رغم كل ما يبدو فيه من انتصار لهذا النحو ؛ إذ هو فى التحليل النهائى يقدر هذا النحو بالقياس إلى النظريات اللغوية المعاصرة، حيث يمنح القيمة لما يشابهها، ولا يلتفت فى غالب الأحيان إلى ما خالفها، وإن التفت إليه رفضه وهاجمه . وآية ذلك أن أيًّا من هذه الدراسات لم يُعْنَ بالبحث عن أوجه الخلاف هذه رغم وجودها، ورغم كونها الأهم على طريق تجاوز الإنجاز الغربى والبحث عن منهج مستقل .

ولا يعنى هذا نفى علاقة هذا البحث بالنظريات اللغوية المعاصرة؛ حيث تمثل هذه النظريات جزءا من التكوين الثقافى للباحث المعاصر، وتشكل جانبا من المنظار الذى ينظر إلى الأشياء من خلاله،ولا يمكنه أن ينفك عنه، وإنما يعنى أنه لا ينطلق من أى من هذه النظريات باحثًا عما يوافقها فى التراث النحوى ؛ فلا يرى فى هذا التراث سوى جانب منه . وربما أساء فهم بعض عناصر هذا الجانب كى تتوافق مع ما يذهب إليه ؛ ومن ثم يعجز تماما عن تقديم صورة حقيقية كاملة لهذا التراث .

وإذا كنت أؤكد أنه ليس بمقدورى ـ ولا بمقدور أحد ـ أن ينفك عن تكوينه الثقافى، فإن الوعى بهذا العجز قادر -على الأقل- على تحجيم قدرة المنظار الخاص بكل دارس على حجب الأشياء وتزييف صورها ؛ ومن ثم فهو قادر على الحفاظ على أكبر قدر ممكن من استقلال المادة موضوع الدراسة . ومن هنا يلاحظ القارئ إصرار هذه الدراسة على استخدام المصطلحات القديمة رَغْبَةً عن سحب مصطلحات جديدة على مفاهيم تنتمى إلى سياق ثقافى مختلف، كما يلاحظ رغبة الدراسة فى تسجيل كل العناصر المنهجية الموجودة فى مادتها مهما بدت صغيرة وغير مؤثرة، بالإضافة إلى ترك نصوص النحويين تعبر عن نفسها ما دام ذلك ممكنًا.

ومن الناحية الإجرائية تبدأ الدراسة بحصر واستنباط المادة المتعلقة بأصول النحو - بالمعنى السابق للمصطلح - داخل كتب إعراب القرآن الكريم، ثم تصنف هذه المادة على المحاور الممكنة للتصنيف مستخرجة دلالات هذه التصنيفات، ومحللة لها فى ضوء مادة أكبر تعين على الفهم والتمحيص، وصولا إلى المبادئ النظرية الكامنة خلفها، وفى أثناء ذلك تحاول الدراسة شرح هذه المادة عن طريق ربطها بظروف نشأتها وبالأفكار التى نشأت فى ظلالها .

وتأسيسا على ما سبق تنقسم الدراسة إلى أربعة فصول، خصص الفصل الأول لدراسة المصطلح، وهو يحاول أن يقدم تحديدا دقيقا للدلالات التى استخدمت بها المصطلحات المنهجية الأساسية، كما يحاول أن يقدم تصنيفا دلاليًّا للمصطلحات النحوية يسهم فى تحديد العناصر المنهجية للنحو العربى.

أما الفصل الثانى من الدراسة فقد خصص للاستقراء، أو للمنهج الذى اتبعه النحاة للوصول إلى القوانين التى تفسر الظواهر اللغوية فى العربية . ويبدأ الفصل بالحديث عن جمع المادة، وموقف النحاة من عناصرها المختلفة، ثم يتحدث عن جهودهم فى تصنيف هذه المادة، وتجريد القاعدة منها، ووسائل التحقق من صحة القاعدة .

وقد خصص الفصلان الثالث والرابع لجهود النحاة فى دراسة القاعدة، فاضطلع الفصل الثالث بدراسة التحويل فى النحو العربى، وهو ينقسم إلى ثلاثة مباحث، يتناول الأول نشأة التحويل ودوافع هذه النشأة، ويتناول الثانى مظاهر التحويل ووسائله، بينما يتناول المبحث الثالث مواضع التحويل. وكذلك ينقسم الفصل الرابع الذى خصص لدراسة التعليل إلى ثلاثة مباحث، يدرس الأول دوافعه، والثانى أنواعه، ويدرس الثالث وسائله .

وفى الختام يسعدنى أن أنوه بعدد من الأساتذة والباحثين الذين مهدوا طريق هذه الرسالة بأبحاث مهمة فى مجالها: تمام حسان، وطاهر سليمان حمودة، وعبد الحكيم راضى، وعبده الراجحى، وعلى سامى النشار، ومحمد حماسة عبد اللطيف، ومحمد

عيد، ونهاد الموسى، كذلك لا يسعنى إلا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى كل الأساتذة والأصدقاء الذين تفضلوا بقراءة أصول هذا البحث ومراجعته، أو مناقشة بعض أفكاره، أو الإشارة إلى بعض مراجعه، أو التشجيع على إتمامه: أحمد على مرسى، عبد الحميد السيورى، عبده الراجحى، محمود الطناحى ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ محمود فهمى حجازى، محمود على مكى، وإلى كل الأساتذة والأصدقاء أبناء قسم اللغة العربية بكلية الآداب، جامعة القاهرة، وإلى جميع أفراد أسرتى الذين يتحملون راضين محبين غيابى الدائم عنهم .

وبعد، فقد حاولت أن أحقق ما استهدفته هذه الدراسة قدر طاقتى، فإذا كنت قد وفقت فلله الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء كل شىء يريد بعد، وإن كانت الأخرى فإنه تعالى غفور رحيم .

«وعلى الله قصد السبيل »

الهوامش:

١ـ الفاكهى: شرح كتاب الحدود فى النحو، تحقيق :المتولى رمضان الدميرى، القاهرة، ١٩٨٨، ٥٢، ٥٣ .

٢ـ السابق: ٥٢

٣ـ الأنبارى: لمع الأدلة فى أصول النحو، تحقيق: سعيد الأفغانى مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ١٩٥٧، ص ٨١

٤ـ نجد هذا فى أعمال مثل:

ـ أصول النحو للأستاذ: سعيد الأفغانى .

ـ أصول النحو للدكتور: محمود أحمد نخلة .

٥ـ من الأعمال التى استخدمت المصطلح بالدلالة الواسعة:

ـ أصول النحو العربى للدكتور محمد عيد.

ـ الأصول للدكتور تمام حسان.